البُعد القرآني للسلوك الأخلاقي عند أئمة أهل البيت عليهم السلام الإمام الحسن (أنموذجاً)

المدرس الدكتور
حسين حمزة شهيد
جامعة الكوفة ـ كلية الآداب

المقدمة:

يُعدُ مبحث الأخلاق من المباحث المهمة التي اهتم بدراستها المفكرين من علماء وفلاسفة، لما يترتب على الفعل أو السلوك الخلقي من آثار خيرة وشريرة في حياة الفرد والمجتمع، فانحراف الإنسان عن سلوكه الصحيح يفقده وظيفته كخليفة الله في الأرض، تلك الوظيفة التي تحتم عليه الحفاظ عليها من خلال الالتزام بالعبادة والسلوك الأخلاقي الحميد، الأمر الذي يؤذن بخطورة واضحة تُهدد المجتمع الإنساني.

ومن هنا حاول الباحث في هذه الدراسة أن يُبين الأخلاق عند الإمام الثاني من أئمة الهدى وهو الإمام (الحسن المجتبى عليه السلام)، والكشف عن الأصل القرآني لها، كونه الإمام الوحيد من بين ألائمة الذي ما زلنا نحن كباحثين مقصرين بأقلامنا في حقه، ويحاول دراسة هذا المبحث دراسة معاصرة بإضفاء مصطلحات أخلاقية معاصرة، كالأخلاق النظرية والعملية، والكشف عن مدلولاتها عند الإمام الحسن عليه السلام.

هذا الجانب من شخصية الإمام السبط عليه السلام حين نتناوله بالدراسة لم نكن لنقصد بحال أن ألائمة الهداة عليهم السلام يتباينون في هذا الجانب أو سواه من عناصر الشخصية الإسلامية المثلى، فهم سواء في ذلك، وحين نسلط الضوء على الجانب الأخلاقي من شخصية الإمام الحسن عليه السلام فإنما نعني بذلك عرض نماذج من

أخلاقه وأسلوب تعامله مع الناس، وتماشياً مع خطتنا هذه نذكر طرفا من أخلاقه المثلى، لكي تكون مثلا يُحتذى ومنهجا يُقتدى.

وقد انقسم البحث على مبحثين وخاتمة، تناول الباحث في المبحث الأول تحديد القرآن الكريم للسلوك الأخلاقي من خلال أشارته للعديد من القيم والفضائل الأخلاقية.

أما المبحث الثاني فقد بينتُ فيه الأخلاق عند الإمام الحسن من خلال تحديده للعديد من المفاهيم والفضائل الأخلاقية وسلوكه الأخلاقي مع المجتمع، والذي جمع فيه بين الجانبين النظري والعملي، وكانت مصداقاً للمفاهيم الأخلاقية التي دعا إليها القرآن الكريم.

أما الخاتمة فقد تضمنت أهم النتائج التي توصل أليها الباحث.

المبحث الأول

الأخلاق في القرآن الكريم

يرمي الباحث في هذا المطلب إلى ذكر بعض القواعد والتعاليم الأخلاقية التي دعا أليها القرآن الكريم، بوصفهما الرافد أو المنبع الذي استقى منه أئمة أهل البيت عليهم السلام سلوكهم الأخلاقي، وتمثلت تعاليم الإسلام في القرآن الكريم والسنة النبوية، واخذ العرب يتدبرون هذه التعاليم وما اشتملت عليه من آداب وتشريع، فاتسعت مداركهم وتفتحت عقولهم على آفاق جديدة من العلم والمعرفة[١].

والإسلام في حقيقته عقيدة وشريعة وعبادات وأخلاق، وهذا يعني أن الأخلاق الإسلامية نابعة من الدين وهي جزء منه، وهي الثمرة الحقيقية للعقيدة والعبادة، والتدين الحقيقي يورث الأخلاق القويمة السديدة، ولا دين بلا خلق[٢]. وقد تجسد هذا المعنى في قول الرسول صلى الله عليه وآله ((أنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق))[٣]، فالغاية الأسمى للدين قد حصرها الرسول واقصرها على الأخلاق الصالحة الحميدة.

والقرآن الكريم أراد مجابهة حياة الفرد وتنظيمها على وفق ما يخدم الفرد والمجتمع معاً فقدم للإنسانية صورة النشاط الفردي الذي ينبغي أن يسير عليه ويحقق متطلباته الأساسية بحكمة واعتدال في حال توازن تام بين رغبات النفس ورغبات الجسد انطلاقاً من الحاجة الطبيعية لكل منها، وعدم إهمال أحدهما من أجل الأخر(٤).

وفي مجال علم الأخلاق يُعالج القرآن الكريم المشكلات التي يعالجها الفلاسفة عادتاً، وهي ما في الأخلاق من واجب أو ألزام ومشكلة الخير والشر، والفضائل والرذائل، وحرية الإنسان، ويحاول الباحث أن يقف على بعض التعاليم الأخلاقية التي دعا أليها القرآن الكريم والتي كان مصداقها العملي هم أئمة أهل البيت عليهم السلام.

١) الفضائل والرذائل:

أول المسائل الأخلاقية التي دعا إليها الباري (عزّ وجل) في كتابه المجيد هو الالتزام بالفضائل والابتعاد عن الرذائل، جاعلاً سعادة الدنيا والآخرة جزاء من التزم بالفضائل، والشقاء والعذاب في الدارين جزاء من لم يلتزم بها، يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٥)، وقوله تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٦).

كما أشار الله تعالى إلى العمل الصالح ودوره في فلاح الإنسان، ﴿وَالْعَصْرِ، إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ﴾(٧).

كما أشار القرآن إلى الفعل الخلقي ومدى علاقته بالخير أو الشر، قوله تعالى ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلاَّ الْمُصَلِّينَ﴾(٨).

ونجد القرآن الكريم يتحدث عن طبائع الإنسان الأخلاقية، ومنها قوله تعالى ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعامِ

وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[٩].

٢) الأخلاق والنفس الإنسانية:

الإسلام كسائر رسالات السماء يعتمد في إصلاحه أخلاق الفرد على تهذيب النفس الإنسانية قبل كل شيء، لان النفس هي بمثابة الجوهر الروحي من الإنسان بخلاف الجسد المادي الفاني، والذي هو بمثابة أداة للتعبير عن السلوك الإنساني، فكل ما للإنسان من أدراك بأقسامه من بصر وشم وسمع وذوق ولمس، هو أدراك خاص بالجوهر الروحاني أو النفس[١٠].

من هنا جاء اهتمام المفكرين من علماء وفلاسفة بهذا العنصر من الإنسان، وقد سبقهم في ذلك القرآن الكريم من خلال تمييزه بين الفضائل والرذائل التي تكتسبها النفس الإنسانية.

وحسبنا هنا أن نبين صفات السلوك الإنساني السوي كما رسمها القرآن الكريم، والتي منها:

١- الاعتدال أو عدم الإفراط والمغالاة في الأفعال والانفعالات، قوله تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾[١١].

٢- حُسن الخلق، وهو التسامي في السلوك الإنساني، فلا تنحدر النفس في سلوكها حين يكون عنوانها حسن الخلق وحين تكون صفاتها الدماثة واللين والعطف، قوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[١٢].

٣- التواضع، وهي الصفة التي تشير إلى اعتراف الإنسان بضعفه أمام خالقه، قوله تعالى ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً﴾[١٣].

٤- الصدق، قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[١٤].

٥- الأمانة، قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ

النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾[١٥].

٦- الحلم والرفق، وهما من صفات الإحسان والخير ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[١٦]، وقوله ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[١٧].

٧- المحبة، وفي مقدمتها حب الله تعالى إذ يعتبر أقدس وأنبل معاني الحب، ولهذا الحب مظاهر كثيرة، منها الإحسان والصبر، والتوكل والتطهر وغيرها، وهذا ما تضمنته العديد من الآيات، قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[١٨]، وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[١٩]، وقوله (الله يحب المتطهرين)[٢٠].

٨- الجود والكرم، وهي متضمنة في معاني الأنفاق، قوله تعالى ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[٢١] وقوله ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[٢٢].

٩- الأمانة، قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾[٢٣].

كما حدد القرآن الكريم مجموعة من الخصال السلبية للنفس البشرية، منها:

١- الضعف، بمعنى أن الإنسان خُلق ضعيف في تكوينه المادي وهو من اضعف المخلوقات، قوله تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾[٢٤].

٢- العَجلة، قوله ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾[٢٥].

٣- الكُفر، وهو من أرذل الصفات واشرها، قوله ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ

آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذاقَهَا اللهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (٢٦).

٤- البخل، قوله ﴿وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٢٧).

٥- الطغيان، قوله تعالى ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى * إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى﴾ (٢٨).

٦- الهلع، أو الجزع في النفس، ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ (٢٩).

٧- النميمة والحقد، ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٠).

٨- النفاق والرياء، ﴿بَشِّرِ الْمُنافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً﴾ (٣١).

وهنا لا بدَّ من الإشارة إلى أن الأخلاق الإسلامية أصيلة في مصدرها، لان مصدرها الوحيد هو القرآن والسنة الطاهرة، ولا يجوز أن يقال بحال من الأحوال أن للأخلاق الإسلامية مصدراً آخر أو مصادر أخرى مثل الفلسفات الشرقية القديمة أو الفلسفة اليونانية، وإذا جاز لنا قبول تأثير هذه الفلسفات على الفلسفة الإسلامية أو غيرها من مناحي الفكر الإسلامي، فلا يجوز لنا قبول ذلك على الأخلاق الإسلامية، وذلك لان هذه الأخلاق ولدت كاملة في القرآن وطُبقت كاملة في سنة الرسول صلى الله عليه وآله تطبيقاً نموذجياً كاملاً، ومن بعده طبقها أهل البيت عليهم السلام، على ما يتضح في سياق حديثنا عن أخلاق الإمام الحسن عليه السلام.

المبحث الثاني

الأخلاق عند الإمام الحسن عليه السلام

إن من أقوى العلل في ظهور الشرائع السماوية وبقاء سلطانها الروحي عنايتها بالأخلاق، واهتمامها بتهذيب النفوس وتهذيبها بالنزعات الخيرة.

وقد اهتم النبي محمد صلى الله عليه وآله بها اهتماماً بالغاً واعتبرها من ابرز الأسباب التي بعث من اجلها بقوله (أنما بُعثت لأُتمم مكارم الأخلاق)، وقد استطاع بمكارم أخلاقه أن يوقظ البشر من سباته ويؤسس معالم الحضارة في العالم الإسلامي، ويغير مجرى التاريخ، فقد ألف ما بين القلوب ووحد المشاعر والعواطف وجمع الناس على صعيد المحبة والإخاء(٣٢).

وهذه الأخلاق الرفيعة قد تمثلت من بعد النبي عند وصيه أمير المؤمنين على ابن أبي طالب عليه السلام، ومن بعده عند حفيده الإمام الحسن المجتبى، بحكم ميراثه من جده العظيم وأبيه سيد البلغاء(٣٣).

ويحاول الباحث أن يدرس مبحث الأخلاق عند الإمام الحسن عليه السلام دراسة معاصرة من خلال الكشف عن ما يسمى عند فلاسفة وعلماء الأخلاق (بالأخلاق النظرية) و(الأخلاق العملية)، ومن ثم لا بدً من الكشف عن معاني هذين المصطلحين عند ذوي الاختصاص قبل ذكر مضامينها في فكر الإمام الحسن.

أولاً: الأخلاق النظرية:

إنّ كلمة الأخلاق لها مفهوم واسع، وآخر ضيّق؛ فهي في مفهومها الضيق تعني الصدق، والوفاء، والإصلاح بين الناس، وعدم الغيبة والتهمة والنميمة، وتجنّب سائر الصفات الرذيلة، بينما تعني في مفهومها الواسع الخلفيات الروحية للأخلاق الفاضلة؛ فالصدق - مثلاً - نابع من الاستقامة في النفس، والإصلاح ناتج عن رؤية صافية إلى الحياة، والوفاء منبثق من شجاعة نفسية لدى الإنسان.. أما الكذب والنميمة والتهمة والغيبة، فانّ هذه الصفات السلبية نابعة من انحرافات

نفسية، وتشوّش واضطراب في الرؤية، وفقدان البصيرة في الحياة[٣٤].

وعلى هذا وطبقاً للمفهوم الضيق تأتي مرتبة الأخلاق بعد كثير من الواجبات، على عكس المفهوم الواسع الذي يعتبر الأخلاق قاعدة لسائر الفضائل، بل منطلقاً حتى للإيمان بالله سبحانه وتعالى، سلوك الإنسان نتاج تربيته[٣٥].

والأخلاق قسمان، الأول نظري أو ما يُعرف بالبعد النظري للأخلاق، والآخر البُعد العملي أو ما يُعرف بالأخلاق العملية، فالأول هو الأخلاق النظرية التي تدرس الضمير والخير والشر والحرية والإرادة والفضيلة وماهيتها وأنواعها، والحق والواجب والنية والقصد والاختيار والمعايير والقيم والبواعث[٣٦].

أما الأخلاق العملية فتبين وتدرس الواجبات المختلفة، واجب الإنسان نحو نفسه، وخالقه، ونحو عائلته ونحو الوطن، والدولة والإنسانية، وبعبارة أخرى تعرض الأخلاق العملية لمباحث الأخلاق النظرية بالتطبيق على ظروف الحياة المختلفة لتقول فيها كلمتها ببيان ما يتفق مع الخير والشر والحق والفضيلة والواجب[٣٧].

والعلاقة بين الأخلاق النظرية والأخلاق العملية ليست علاقة تنافي وتعارض، بل هي علاقة تداخل وتفاعل، و إلاّ لكان فيلسوف الأخلاق شريراً بالضرورة و لكان كل إنسان فاضل دمث الأخلاق، غبياً أو على الأقل عديم التأمل والتبصّر والنظر، إنما هي تقسيمات أكاديمية يراد بها التحليل والتبسيط تجنباً للتعقيد الذي تتصف به الظاهرة الخلقية وتسهيلاً للبحث والدراسة[٣٨].

وبرأي الباحث فأن الأخلاق بشقيها النظري والعملي قد تجسدا في فكر الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، ويمكن لنا تلمس هذا الجانب النظري عند الإمام الحسن من خلال تحديده وتعريفه لمصطلحات عديدة يمكن تسميتها بلغة العصر (مكارم الأخلاق) في إجابته على أسئلة أبيه المرتضى عليه السلام نختار منها ما يلي[٣٩]:

- السداد: دفع المنكر بالمعروف.

- الشرف: اصطناع العشيرة وحمل الجريرة (موافقة الإخوان).
- المروءة: العفاف وإصلاح المرء ماله (إصلاح الرجل أمر دينه، وحسن قيامه على ماله، وإفشاء السلام والتحبّب إلى الناس).
- السماحة: البذل في العسر واليسر.
- الإخاء: الوفاء في الشدّة والرخاء.
- الغنيمة: الرغبة في التقوى والزهادة في الدنيا.
- الحلم: كظم الغيظ وملك النفس.
- الغنى: رضى النفس بما قسم الله وإن قلّ، فإنّما الغنى غنى النفس.
- المنعة: شدّة البأس ومقارعة أشد الناس.
- الصمت: ستر العيب وزين العرض، وفاعله في راحة، وجليسه آمن.
- المجد: أن تعطي في الغرم، وأن تعفو عن الجرم.
- العقل: حفظ القلب كلّ ما استرعيته (استوعيته) أو حفظ القلب لكلّ ما استتر فيه.
- الثناء: إتيان الجميل وترك القبيح.
- الحزم: طول الأناة والرفق بالولاة والاحتراس من الناس بسوء الناس.
- الكرم: العطيّة قبل السؤال والتبرع بالمعروف والإطعام في المحلّ.
- النجدة: الذبّ عن الجار والمحاماة في الكريهة والصبر عند الشدائد.

وأجاب الإمام بكل استرسال وعدم تكلّف على مجموعة أخرى من أسئلة أبيه فيما يخصّ (مساوئ الأخلاق) ونختار منها ما يلي :

- الدنيئة: النظر في اليسير ومنع الحقير.

- اللؤم: احتراز المرء نفسه (ماله) وبذله عرسه (عرضه).
- الشحّ: أن ترى ما في يديك شرفاً وما أنفقته تلفاً.
- الجبن: الجرأة على الصديق والنكول عن العدوّ.
- الفقر: شره النفس في كلّ شيء.
- الجرأة: موافقة الأقران.
- الكلفة: كلامك فيما لا يعنيك.
- الخُرْق: معاداتك إمامك ورفعك عليه كلامك.
- السفه: أتباع الدناة ومصاحبة الغواة.
- الغفلة: تركك المسجد وطاعتك المُفسِد.
- الحرمان: تركك حظّك وقد عرض عليك.
- شرّ الناس: من لا يعيش في عيشه أحد.

وتحدّث الإمام عن أصول الجرائم الأخلاقية وأمهات الرذائل قائلاً: هلاك الناس في ثلاث: الكبر، الحرص، الحسد

- الكبر: به هلاك الدين وبه لُعِن إبليس.
- الحرص: عدو النفس وبه أُخرج آدم من الجنّة.
- الحسد: رائد السوء وبه قتل هابيل قابيل.

كما نجد الإمام عليه السلام يُحدد أربع مستويات من الناس وفق مستواهم الخلقي، يقول ((إن الناس أربعة، فمنهم من له خِلاق وليس له خُلق، ومنهم من له خُلق وليس له خِلاق، ومنهم من ليسه له خُلق وخِلاق، فذاك اشر الناس، ومنهم من له خُلق وخِلاق، فذاك أفضل الناس))[٤٠].

بمعنى انه لا يكفي أن يكون للإنسان طرف ويتمسك به، ويفقد الطرف الآخر العملي، بل لا بد من توافر الطرفين معاً حتى يكتمل السلوك الأخلاقي قولاً وفعلاً.

ويقول مخاطباً أهل الكوفة ((إن الحكم زينة، والوفاء مروؤه والعجلة سفه، والغرور ضعف، ومجالسة أهل الدناءة شين، ومخالفة أهل الفسوق ريبة))[٤١]. وروي عنه انه قال: ((مكارم الأخلاق عشر: صدق اللسان، وصدق البأس، وإعطاء السائل، وحسن الخلق، والمكافئة بالصنائع، وصلة الرحم، والترحم على الجار، ومعرفة الحق للصاحب، وقري الضيف، ورأسهن الحياء))[٤٢].

كُل ذلك يوحي لنا أن الإمام الحسن عليه السلام كان يهتم بتحديد المصطلحات الأخلاقية تحديداً دقيقاً، وهذا ما نعني بمصطلح اليوم (الأخلاق النظرية)، كما انه يقسم الناس إلى طبقات حسب سلوكهم الأخلاقي، الأمر الذي ينم عن أدراك الإمام الحسن عليه السلام أهمية وخطورة الفعل الخلقي وما يترتب عليه من أثار خيرة أو شريرة مستويات حسب فعله الأخلاقي.

الأخلاق العملية:

كان الإمام الحسن عليه السلام آيةً في الخُلق الإنساني والرفعة وحسن الأخلاق، ما رآه احد ألا هابه، ولا خالطه إنسان ألا أحبه، ولا سمعه صديق أو عدو يتحدث أو يخطب ألا أحب أن يصغي أليه حتى ينهي حديثه[٤٣]. قال محمد بن إسحاق ((ما بلغ احد من الشرف بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ما بلغ الحسن بن علي، كان يبسط له على باب داره، فإذا خرج وجلس انقطع الطريق، فما يمر احد.....، فإذا علم قام ودخل بيته فيمر الناس، لقد أعطاه الله وقاراً خاصاً وهيبة نبوية)).

وقال الزركلي من المؤرخين واصفاً الأمام الحسن عليه السلام ((كان عاقلاً حليماً محباً للخير، فصيحاً من أحسن الناس منطقاً وبديهةً، وكان معاوية يوصي أصحابه باجتناب محاورة رجلين: هما الحسن بن علي، وعبد الله بن عباس، لقوة

بداهتمها))[٤٤]. ومصداق أخلاق الأمام العملية كثيرة يُحدثنا بها من أرخ له، كان من بينها انه كان يغضي عمن أساء أليه، ويقابله بالإحسان، فقد كانت عنده شاة فوجدها يوماً قد كسرت رجلها، فقال لغلامه: من فعل هذا بها؟ قال الغلام: أنا، قال الأمام: ولما؟ قال: لأجلب لك الهم والغم، فتبسم الإمام عليه السلام وقال له: لآسرك، فاعتقه وأجزل له العطاء[٤٥].

ومن عظيم أخلاقه عليه السلام انه كان جالساً في مكان، فأراد الانصراف منه، فجاء فقير فرحب به ولاطفه، وقال له: إني جلست على حين قيام منا، افتأذن لي بالانصراف؟ فقال له: نعم يا ابن رسول الله[٤٦].

وهنا إشارة من قبل الإمام إلى أن حق الجليس من الآداب الاجتماعية التي توجب المحبة والألفة، وتوجد التعاون والترابط بين الناس، فلذا أمر الإسلام بها وحث عليها.

وقد روي انه في يوم من الأيام امتاز جماعة من الفقراء قد وضعوا على وجه الأرض كسيرات من الخبز كانوا قد التقطوها من الطريق وهم يأكلون منها، فدعوه إلى مشاركتهم، فأجابهم إلى ذلك وهو يقول: إن الله لا يُحب المتكبرين، ولما فرغ من تناول الطعام معهم، دعاهم إلى ضيافته فأطعمهم وكساهم[٤٧].

تلك هي بعض شمائل الإمام عليه السلام وبعض مواقفه السخية مع أبناء الأمة والتي كان لها ابعد الأثر في تجسيد الخلق الإسلامي الرفيع.

وقد ذكر ابن عائشة أن رجلاً من أهل الشام قال: دخلت المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فرأيتُ رجلاً راكباً على بغلة لم أرى أحسن منه وجهاً ولا سمتاً ولا ثوباً، ولا دابة منه، فمال القلب أليه، فسالت عنه، فقيل هذا الحسن ابن علي بن أبي طالب، فامتلاء قلبي له بغضاً وحسدت علياً أن يكون له ابن مثله، فصرت أليه وقلت له: أأنت ابن علي؟ فقال: أنا ابنه، فقلت: فعل بك وبابنيك اسبهما. فلما انقضى كلامي قال لي: أحسبك غريباً؟ قلت اجل، قال:

مل بنا، فأن احتجت إلى منزل أنزلناك، أو إلى مال اسيناك، أو إلى حاجة عاوناك، قال: فانصرفت عنه ما على الأرض أحب إلي منه، وما فرت فيما صنع وصنعت معه ألا شكرته وخزيت نفسي(٤٨).

وقد شهد له أعدائه بذلك، حيث لما استشهد الإمام الحسن عليه السلام، بكى عليه مروان في جنازته، فقال الحسين عليه السلام: أتبكيه وقد كنت تجرعه ما تجراعه، فقال: أني كنت افعل ذلك إلى احلم من هذا، وأشار بيده إلى الجبل(٤٩).

هكذا شب الحسن ونهل العلم من بيت النبوة والرسالة وكذلك الأدب والخُلق هو وأخيه الحسين عليه السلام، ولقد أثمرت هذه التربية في بيت علي وفاطمة وفي حجر الرسول صلى الله عليه وآله هذا النمط الغرير من الخُلق الرفيع الذي لا مثيل له' فضلاً عن أنه كان مثالاً للإنسانية الكريمة ورمزاً للخلق العظيم، لا يثيره الغضب ولا يزعجه المكروه وكان مصداقاً لقوله تعالى ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾، وقد قابل جميع ما لاقاه من سوء وأذى ومكروه من الحاقدين عليه بالصبر والصفح الجميل(٥٠).

الخاتمة:

أتضح لنا من خلال البحث كيف أن الأمة عليهم السلام كانوا مثالاً للأخلاق السامية، وأنهم امتداد لجدهم الرسول صلى الله عليه وآله، وقد جسد الإمام الحسن المجتبى عليه السلام هذه المُثل والأخلاق على مستوياتها النظرية والعملية الواقعية، وكانت أخلاقه نموذجاً للأخلاق التي دعا إليها القرآن الكريم من فضائل، وطاعات، وخُلق حسن، ومحبة، وحلم، وجود وكرم.

أما على المستوى النظري فيتمثل في تحديد الإمام للعديد من المصطلحات الأخلاقية سواء التي تُعرف (بمكارم الأخلاق)، أو ما تعرف (بمساوئ الأخلاق)، الأمر الذي يوحي بان الإمام قد سبق الفلاسفة وعلماء الأخلاق في بحثهم هذه الموضوعات.

وقد جسد الإمام عليه السلام هذه المعاني الأخلاقية على مستوى الواقع الإنساني بمستوياته المتعددة، وهو ما يُعرف بالأخلاق العملية، حيث عرف عنه تواضعه وزهده وتقبله للأخر، وهذه كلها من سمات السلوك الإنساني الرفيع.

هوامش البحث

(١) يُنظر: زقزوق، د. محمود حمدين، مقدمة في علم الأخلاق، ط٣، دار القلم، بيروت، ١٩٨٣، ص٥٦.
(٢) يُنظر: الشرقاوي، د. محمد عبد الله، الفكر الأخلاقي، دار الجيل، بيروت، القاهرة، ١٩٩٠، ص١١١.
(٣) رواه مالك.
(٤) موسى، محمد يوسف، القرآن والفلسفة، القاهرة، ١٩٥٨، ص٢٢.
(٥) سورة النحل، آية ٩٠.
(٦) النحل، ٩٧.
(٧) العصر، آية ١-٣.
(٨) المعارج، ١٩-٢١.
(٩) آل عمران، ١٤.
(١٠) يُنظر: العقاد / عباس محمود/ الإنسان في القرآن الكريم / دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٦، ج٣، ص٢٧٠.
(١١) الاسراء ٢٩.
(١٢) القلم آية ٤.
(١٣) الفرقان، ٦٣.
(١٤) التوبة، ١١٩.
(١٥) النساء، ٥٨.
(١٦) الأعراف، ١٩٩.
(١٧) آل عمران، ١٣٤.
(١٨) المائدة، ١٣.
(١٩) المائدة، ٤٢.
(٢٠) آل عمران، ١٥٩.
(٢١) البقرة، ٢٧٢.
(٢٢) آل عمران، ٩٣.
(٢٣) النساء، ٥٨.

(٢٤) النساء، ٢٨.
(٢٥) الأنبياء، ٣٧.
(٢٦) النحل، ١١٢.
(٢٧) التغابن، ١٦.
(٢٨) العلق، ٦-٨.
(٢٩) المعارج، ١٩-٢٢.
(٣٠) الحجرات، ١٢.
(٣١) النساء، ١٣٨.
(٣٢) يُنظر: الشرقاوي، د. محمد عبد الله، الفكر الأخلاقي، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٨، ص١١٢.
(٣٣) القرشي، الشيخ باقر شريف، حياة الأمام الحسن،ج١، ص٢٩٠.
(٣٤) المصدر نفسه، ص٢٩٣.
(٣٥) المدرسي، السيد محمد تقي، الأخلاق عنوان الأيمان ومنطلق العمل، ص١٠.
(٣٦) مغنية، محمد جواد، فلسفة الأخلاق في الإسلام، دار العلم، بيروت، ١٩٧٧، ص١٢ - ٥٤.
(٣٧) ينظر: مرحبا، د. محمد عبد الرحمن، المرجع في تاريخ الأخلاق، جرس برس، ط١، طرابلس، ١٩٨٨، ص١٤-١٥.
(٣٨) ينظر: مرحبا، محمد عبد الرحمن، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، منشورات عويدات، ط٣، بيروت، ١٩٨٣، ص١٢٥.
(٣٩) الشيرازي، حسن، كلمة الإمام الحسن، ص٦٣.
(٤٠) المصدر نفسه، ص٦٥.
(٤١) المصدر نفسه، ص٦٧.
(٤٢) يُنظر: دخيل، علي محمد علي، أدعية الإمام الحسن، دار المرتضى، ط١، بيروت، ٢٠٠٠، ص٥٩.
(٤٣) الحاج حسين، حسين إبراهيم، الإمام الحسن رائد الواقعية السياسية، دار الهادي، ٢٠٠٧، ص٤٠.
(٤٤) الزركلي (خير الدين)، ج١، الإعلام، دار العلم للملايين، بلا.ت، ص٢٣٠.
(٤٥) الخوارزمي، مقتل الحسين، ج١، ص١٤٧.
(٤٦) القرشي، الشيخ باقر شريف، حياة الأمام الحسن، ص٢٩٢.
(٤٧) أعيان الشيعة، ج٤، ق١، ص٢٤.
(٤٨) ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد)، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ج٢، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٩، ص٦٨.
(٤٩) العسقلاني، ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٢، ص٢٩٨.
(٥٠) الموسوي، محمد، السياسة الملتزمة في نهج الإمام الحسن، ط١، دار المحجة البيضاء، لبنان، ١٩٩٩، ص١٦.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

١- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد)، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ج٢، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٩.

٢- إمام، د. عبد الفتاح إمام، فلسفة الأخلاق، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٩٠.

٣- الحاج حسين، حسين إبراهيم، الإمام الحسن رائد الواقعية السياسية، دار الهادي، ٢٠٠٧.

٤- الخوارزمي، مقتل الحسين، ج١

٥- دخيل، علي محمد علي، أدعية الإمام الحسن، دار المرتضى، ط١، بيروت، ٢٠٠٠.

٦- الزركلي(خير الدين)، ج١، الإعلام، دار العلم للملايين، بلا.ت.

٧- زقزوق، د. محمود حمدين، مقدمة في علم الأخلاق،ط٣، دار القلم، بيروت، ١٩٨٣.

٨- الشرقاوي، د. محمد عبد الله، الفكر الأخلاقي، دار الجيل، بيروت، القاهرة، ١٩٩٠.

٩- العقاد، عباس محمود/ الإنسان في القرآن الكريم، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٦.

١٠- القرشي، الشيخ باقر شريف، حياة الأمام الحسن، ج١.

١١- المدرسي، السيد محمد تقي، الأخلاق عنوان الأيمان ومنطلق العمل.

١٢- مرحبا، د. محمد عبد الرحمن، المرجع في تاريخ الأخلاق، جرس برس، ط١، طرابلس، ١٩٨٨.

١٣- مغنية، محمد جواد، فلسفة الأخلاق في الإسلام، دار العلم، بيروت، ١٩٧٧.

١٤- مغنية، محمد جواد، فلسفة الأخلاق في الإسلام، دار العلم، بيروت، ١٩٧٧.

١٥- من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، منشورات عويدات، ط٣، بيروت، ١٩٨٣.

١٦- الموسوي، محمد، السياسة الملتزمة في نهج الإمام الحسن، ط١، دار المحجة البيضاء، لبنان، ١٩٩٩.

١٧- موسى، محمد يوسف، القرآن والفلسفة، القاهرة، ١٩٥٨.